(١٨)
استئناف النديم للجهاد

ومع أن أحوال النديم الصحية قد تضعضعت حيث ضعفت صحته من آثار الجهود التى بذلها والإرهاق النفسى والجسمى الذى تعرض له فى أثناء الاختفاء والنفى، ومع أنه كان باستطاعته أن يكتفى بما قدم من تضحيات فى سبيل مصر وأن يجنح إلى مصانعة الاحتلال فينال بهذا إحدى الوظائف الكبرى فى نظارة المعارف أو غيرها ويخلد إلى الراحة والرخاء فإنه لم يحد عن مبادئه، ولم يتنكر لها بل ظل مخلصا وفيا وأبت عليه وطنيته إلا أن يستأنف الجهاد.

أخذ النديم يدرس أحوال البلاد ليعرف ما طرأ عليها فى أثناء غيابه، وحاول إعادة الثقة إلى الشعب الذى اجتمعت عليه

الأحداث لتغير من نفسيته حيث انتشرت روح الجبن والنفاق والنفعية وكان سبيله إلى ذلك "الخديو عباس الثانى" إذ وجد فيه أميرا شابا طموحا وثاب العزيمة فعقد عليه الأمل فى تنشيط حركة المقاومة ضد الاحتلال، وطالب المصريين كافة بمؤازرته ووصفه 'بالهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم الساعى فى منح الوطنيين حقوقهم وتمتعهم بخصائصهم الإدارية». ولما كانت الظروف قاسية بالنسبة إلى النديم والشرط الذى صحب العفو عنه هو أن لا يعمل فى السياسة، فهو لا يستطيع الطواف بالبلاد أو أن يعتلى المنابر ويخطب فى المساجد والمجالس كما كان يفعل من قبل، ولم يكن أمامه من سبيل للوصول إلى الشعب إلا عن طريق الصحافة، ولكن كيف ذلك وتاريخه حافل بالتوتر مع الإنجليز الجاثمين على صدر البلاد؟

استطاع شقيقه عبد الفتاح نديم الحصول على تصريح من نظارة الداخلية بإصدار مجلة تحت اسم " الأستاذ" ثم وكل عبد الله النديم فى تحريرها وترتيب وسائلها، وقد نالت هذه المجلة من الشهرة والانتشار ما لم ينله سواها من الجرائد الوطنية منذ أعوام، حيث لقيت إقبالا عظيما من الجمهور دل على عظيم مكانة صاحبها فى النفوس، كما كانت شديدة التأثير فى أفكار

أبناء الأمة على اختلاف نحلهم حتى بلغ عدد ما يطبع منها ثلاثة آلاف نسخة، فقد "أقبل عليها المشتركون من البلدان كافة حتى الأميون، وكل يستعذب عباراتها ويتلذذ بسماعها، حتى بلغ عددهم فى القاهرة وحدها ٨٦٠ (ثمانمائة وستين) مشتركا وفى خارجها ١٧٨٠ (ألفا وسبعمائة وثمانين) مشتركا.

وفى تلك المدة أخذ الجفاء يزداد بين كل من الخديو عباس الثانى واللورد كرومر وأخذت الحكومة البريطانية تلوح للخديوى بضرورة اتباع سياسة والده إذا أراد الاحتفاظ بعرشه، ولكنه لم يستمع إلى ذلك بل زاد من تقربه إلى الشعب وأيد الحركات المناوئة للاحتلال مما دفع عبد الله النديم إلى الذود عنه وجمع الناس حوله ومطالبتهم بالخضوع له والاعتراف بسيادته وسلطته عليهم، ولما أقال الخديو رئيس النظار "مصطفى فهمى" صنيعة الإنجليز وموضع ثقتهم، حدثت أزمة بين الخديو والإنجليز عرفت فى التاريخ بأزمة الانقلاب الوزارى كشف النديم خلالها النقاب عن كراهيته للاحتلال فقام يستنهض الهمم وعلت لهجته فى إثارة العواطف القومية ضد الاحتلال والمضى على مؤازرة الخديو، وبدا ذلك واضحا فى مقاله الطويل شديد اللهجة الصادر فى ١٧ يناير ١٨٩٣ تحت عنوان "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" حيث دعا فيه إلى الالتفاف حول الخديو، كما رد على

افتراءات الأوربيين فى التقليل من شأن الشرقيين لتبرير أسباب احتلالهم لمصر، كذلك حث النديم من خلال هذا المقال الشرقيين على العمل من أجل مقاومة الاستغلال الأوربى مبينا لهم أسباب تقدم الغرب وتأخر الشرق، كما كتب مقالا تحت عنوان "الحقوق المقدسة" بين فيه حق الخديو فى تعيين الوزراء وانتقد التهديدات الإنجليزية للخديى بالعزل، كما نازل الجرائد المعارضة للخديو فى قوة ووضوح وكانت له مواقف عنيفة مع أصحاب "المقطم" الذين مكنوا للإنجليز من مصر فكان فى خصومته لهم لينا فى قسوة وهينا فى عنف واستمر على هذه النغمة فى الأعداد التالية من الأستاذ فكتب مقالا بعنوان: "هذه يدى فى يد من أضعها؟" طالب فيه أبناء وطنه بالوقوف بجانب الخديو ووضع أيديهم فى يده، وذكر أن الذى يضع يده فى يد الأجنبى خير له أن يقطعها من وضعها على هذا المنوال، كما طالب بتجنب تقليد الأوربيين والمحافظة على حقوق الوطن دون التعرض لحقوق الأجانب المقيمين فى مصر أو النزلاء منهم.

ثم اتهم أصحاب "المقطم" بأنهم الأجراء الذين يسيئون إلى أمتهم باستحسانهم الاعتراف بسلطة الإنجليز، وهكذا كانت مقالات النديم صدى لما يحدث من أزمات بين الخديو والمعتمد البريطانى وصدى أيضا لما يعانيه الشعب فأثبت أن يحمل بين

جنبيه نفسا أقوى من الكوارث وعزيمة لا يوهنها الفشل، فقد استطاع عن طريق صحيفة الأستاذ أن يشعل نار الوطنية المصرية من جديد فخرجت المظاهرات لأول مرة بعد الاحتلال تؤيد موقف الخديو، وتهتف ضد الاحتلال فيخرج الشباب وفى مقدمتهم طلاب مدرسة الحقوق وعلى رأسهم مصطفى كامل يقتحمون إدارة جريدة المقطم ويحرقونها لانحيازها ضد الوطن والخديو وإظهارها روح العداء ضد "الوطنية المصرية وروح النهضة الأهلية التى انتشرت بين طبقات الأمة"، مما دفع السلطات الإنجليزية إلى التهديد بالتدخل بحجة المحافظة على الأمن العام كما هرع الناس إلى سراى عابدين يهنئون الخديو على ثباته فى موقفه من الأزمة، ومع أن النديم أشعل نار الوطنية المصرية خلال الأزمة ودفع أبناء وطنه إلى الوقوف بجانب الخديو ومساندة موقفه فى المحافظة على حقوقه فقد نادى بأهمية اتباع الهدوء حتى لا تتخذ إنجلترا من ذلك فرصة لاتهام المصريين بالتعصب الدينى.

توطدت أواصر الصلة بين الخديو والنديم فى أعقاب الأزمة الوزارية ولما أحس أتباع كرومر بصلة النديم بالقصر بدأت المغريات تلتف حوله فسعوا إليه يمنونه بالمنصب والجاه والراحة نظير مسالمته للاحتلال، ولكن النديم عد طريق الكفاح أمانة فى

عنقه، ونتيجة لتطورات الأحداث قامت إنجلترا بزيادة أعداد قواتها فى مصر كما قام كرومر بمحاولات للتقرب من الشعب وذلك بإقامة الاحتفالات والتبسط معهم فى الحديث وإيهامهم بأن الخديو سيعود إلى دكتاتورية آبائه لو انفرد بالأمر، وأن الإنجليز لا يبغون سوى مصلحة الشعب.

أحست سلطات الاحتلال باهتزاز موقفها بعد الأزمة الوزارية التى ثبت منها أن الشعب يشد أزر الخديو، ويشاركه شعوره فى أن يثبت أن لمصر خديو جديرا بلقبه، كما أثبت التناقض الواضح بين أقوال وأفعال الاحتلال إزاء الخديو، إذ إن إنجلترا كانت تسوغ احتلال مصر بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هى تحرمه من سلطته فى اختيار وزرائه، ووقفت الصحف الوطنية بقيادة النديم تساند موقف الخديو وتهاجم الصحف المأجورة وعلى رأسها «المقطم»، وترد المقطم مطالبة بإغلاق «الأستاذ» وتتهم صاحبها بأنه يهيئ لثورة مثل الثورة العرابية، وتخرج الشائعات عن نفى النديم وهروبه من مصر، ويكذبها النديم على صفحات جريدته، ويواجه التحدى وتستمر المعركة الصحفية بينهما، فيكتب النديم مقالا تحت عنوان: "إنما يقبل النصيحة من وفق" اتهم فيه «المقطم» ببذر بذور الشقاق والفتنة وراءهم وأنهم سبب مصائب الشرق، ثم تبع ذلك بمقالة أخرى عنوانها "لم

اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا" حمل فيه على الصحف التى تديرها أقلام شرقية ومع ذلك لا تخدم سوى الاحتلال.

كما كشف عن أصحاب «المقطم» وتاريخ حياتهم فقال: "كيف يرجى الصدق والإخلاص ممن خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم، وكانت بلادهم أولى بالخدمة، وأقرب الحوادث منا وجود أحد الأجراء خطيبا فى محفل من محافل بيروت.. يحرض فيه الناس على نبذ الطاعة السلطانية والانحياز للغير.

وترد «المقطم» على النديم بشن حملات عنيفة عليه لإيهام السلطات بخطورته كما طالبت بإغلاق مجلته وإبعاده عن مصر، وأيدتها فى ذلك التايمز واتهمت النديم بإثارة النعرة الدينية ضد أوروبا، واستمرت الحملات بين «الأستاذ» و«المقطم» حتى خشيت سلطات الاحتلال من آثارها.

ويمكن القول إن مقالات النديم على صفحات «الأستاذ» فيما بين أغسطس ١٨٩٢ ويونيو ١٨٩٣ كانت تحدد المعارضة الصحفية القومية ضد الاحتلال حيث هزت الشعب بلهجتها القوية الشبيهة بلهجة "العروة الوثقى".